العدد (1867) السنة السابعة - الثلاثاء (3) آب 2010 ◆ http://www.almadapaper.com - E-mail: almada@almadapaper.com

الآراء الـــواردة في الصفحة تعبر عن وجهات نظر كتابها ، وقد لاتتفق بالضرورة مع وجهة نظر الجريدة

أزمنــة التحديـــث فـــي إيـــران (١٨٠٠ - ١٩٧٩)

الجزء الأول

لا تتسع مداخلة محدودة لاستقراء ودراسة وتحليل، تيارات واتجاهات ومدارس ورموز الإصلاح والتحديث في إيران، ذلك ان تأريخ إيران القريب يحفل بآراء وأفكار ومواقف ومنعطفات متنوعة، عبرت عنها الأحزاب، والجمعيات، والمنتديات، ومراكز الأبحاث، والمؤسسات المدنية، والجامعات، والصحف والدوريات، مضافا الى الحوزات العلمية، وشبكة رجال الدين المنتشرين في المدن والقرى والأرياف، ممن لا يغادرون المساجد والحسينيات، ويتخذون منها منابر للدعوة والإرشاد الديني، واستثمار الطقوس والشعائر المستمرة لتعبئة الجماهير، ودمجها بالشأن العام.
كما ان للبازار دورا مميزا في الحياة الاقتصادية، والسياسية، والاجتماعية، والثقافية، والدينية، والبازار هو السوق التجارية العريقة والعملاقة، المتوطنة في طهران وأصفهان ومشهد وتبريز وشيراز ويزد، وغيرها من المدن الكبيرة، وعادة ما يتمدد البازار ويتكرس دوره في الاجتماع الإيراني، مع تنامي الدخل وارتفاع المستوى المعيشي، وتطور المعاملات التجارية، وتداول الثروة، وحركة رؤوس الأموال.

د. عبد الجبار الرفاعي
كاتب وباحث

ان هذه الورقة لا تزعم انها تستوعب كل ذلك، وانما تحاول مواكبة مسار التحديث، والإشـارة الى أبـرز محطاته ومراحله، واستخلاص أهـم اتجاهاته وتياراته، والتعرف على شيء من قراءاته للنص والتراث، واكتشاف بعض مقارباته للواقع، والتوقف عند المقولات والمفاهيم والآراء السائدة لدى رموزه، خاصة ما يتصل منها بتفسيراته للتمظهرات والتعبيرات والتجليات المتنوعة للدين في المجتمع.
ذلك ان أية ظاهرة في الاجتماع الإيراني تحيل الى الدين، وعادة ما تتخذ الجدليات والنقاشات والآراء المتضادة في تفسير ظاهرة معينة، أو تبريرها، من الدين مرجعية لها. وغالبا ما يلوذ المتخاصمون بالأدلة والحجج اللاهوتية، والفتاوى الفقهية في شرعنة مواقفهم.
والشخصية الإيرانية متدينة بطبيعتها، بمعنى انها شخصية باطنية، مركبة، طقوسية، مسكونة بالأسرار، تغرق بالتأمل، وتعشق التجارب الروحية، وتدمن الارتياض، وتتسم بالصبر والجلد، والمثابرة. وربما تعيش في حياتها العملية نمطا مدنيا حديثا، اي بعيدا عن المدونة الفقهية، لكنها في المجال الشخصي الخاص تنشد الزيارات، والمواجيد، والدعاء، ولا تكف عن طقوس عاشوراء، وتراجيديا مأتم كربلاء.
كل ذلك مهّد الأرضية لامتداد نفوذ رجال الدين في مختلف الميادين الاجتماعية، وأتاح للحوزة العلمية التوغل في حياة الناس، وتقاليدهم، وعاداتهم، وأعرافهم، وثقافتهم، وتفكيرهم، ومنحها مكانة استثنائية، جعلتها الذروة والمرجعية العليا في المجتمع.

بواكير التحديث

بعد سقوط الدولة الصفوية في العقد الثالث من القرن الثامن عشر الميلادي (في٢ ١٧٣)، ظهرت عدة حكومات محلية قبيل الحكومة القاجارية، ففي الفترة (١٧٣٦-١٧٤٧) حكم نادرشاه المعروف بقسوته وغلظته، والافشاريون في خراسان، وكريم خان زند في شيراز (١٧٧٥-١١٧٥). ولم تتمكن هذه الدويلات من بسط سيطرتها على كافة الولايات الايرانية. ثم بدأت سيطرة آقا محمد خان (١٧٧٩-١٧٩٧) مؤسس المملكة القاجارية، على الولايات بالتدريج، والذي تلاه في الحكم أخوه فتح علي شاه (١٧٩٧-١٨٣٤). وكان ولي عهده عباس ميرزا (١٧٨٨-١٨٣٣) حاكما على اذربيجان، ومقيما في تبريز. وقاد الأخير الجيش الإيراني في معاركه المريرة مع روسيا (١٨٠٣-١٨٢٧)، والتي انهزمت فيها إيران، واضطرت لتوقيع معاهدة كلستان (١٨١٣) بعد نهاية المعركة الأولى، ومعاهدة تركمان شاي (١٨٢٧) بعد ختام الحرب والفراغ من المعركة الثانية. وأرهقت السلطنة القاجارية بمواثيق وشروط في المعاهدتين، لم تتخلص منها ايران إلا بعد ثورة اكتوبر في روسيا.
شكلت الهزيمة جرحا عميقا لدى الايرانيين، وحفزت ولي العهد وقائد الجيش عباس ميرزا، المعروف بنائب السلطنة، للتفكير بجدية بأسباب انحطاط ايران، والسبل الكفيلة للنهوض بالمجتمع، وإصلاح حال الأمة، وساهم الموقع الجغرافي لتبريز، وارتباطها مع الدولة العثمانية، وروسيا وأوروبا، عبر (خوي- ارضروم- طرابزون) و(ايروان- تفليس)، في تعرف عباس ميرزا والنخبة المصطفة من حوله، على الأساليب الجديدة في اعداد الجيوش الروسية والعثمانية، فاستعارها لبناء الجيش الايراني، وحاول ان يقتبس حتى نمط الملابس العسكرية للجنود والمراتب في جيشه، بالرغم من ردود الأفعال السلبية، ممن استهجنوا ارتداء المؤمنين لباس الكفار المماثل للجيوش غير المسلمة.
كما حرص على ابتعاث تلميذين الى فرنسا اولا، وبعد قطع العلاقات بين فرنسا وايران، بادر السفير البريطاني لقبولهما في لندن (١٨٠٩-١٨١٠). وعاد حاجي بابا افشار الى ايران ليعمل طبيبا لعباس ميرزا، فيما توفي التلميذ الآخر محمد كاظم في لندن.
وبعد ثلاث سنوات ارسل الى لندن أيضاً خمسة اشخاص، احدهم هو ميرزا صالح شيرازي، الذي مكث هناك ثلاث سنوات وتسعة اشهر، وكتب رحلته وانطباعاته عن الحياة الغربية، وسجل الكثير من التفاصيل والمفردات عن التقدم الأوروبي ونظام الحكم.
وكان تلميذ آخر من هذه المجموعة قد اقترن بفتاة انجليزية، ولعل هذا أول زواج رسمي معروف بين رجل ايراني وامرأة أوروبية.
وتداولت السلطنة القاجارية وقتئذ مع محمد علي باشا لإرسال خمسين تلميذا الى مصر، ولم يتحقق ذلك في النهاية.
أشاع المبتعثون العائدون الى ايران الأفكار والمعارف التي تعلموها في أوروبا، في البلاط وبين النخبة الحاكمة، وتحدثوا عن انطباعاتهم ودهشتهم من المعارف والتمدن الغربي، ووفر لهم ولي العهد فرصة مناسبة لإبداء آرائهم، يكتب احدهم في رسالة له الى زميلة انجليزية:(.... نحن في رعاية ولي عهدنا المحبوب عباس ميرزا، يسود بلدنا العزيز العلم والسلام والاستقرار والأمن....).
والتمس عباس ميرزا مختلف السبل للإنفتاح على المعارف والفنون الأوروبية، فنشر في الصحافة الاوروبية بيانا سنة ١٨٢٦) يتضمن دعوة لكل من يرغب من (الافرنج في السكن في اذربيجان وعاصمتها تبريز ... وبدلا من ان يذهب الاوروبيون الى افريقيا وقيرغيستان وداغستان، بوسعهم القدوم الى إيران، والعيش فيها، ليكتشف الايرانيون من خلالهم الحضارة الغربية وتكفلت الحكومة بحمايتهم، ومنحهم حرية دينية في ممارسة شعائرهم، وإعفائهم من الضرائب.
وكانت هذه المبادرات عرضة للنقد والتشكيك والسخرية، حتى وصف احد الكتاب حينذاك الطلاب المبعوثين الى اوروبا، متهكما بأنهم (ديوك رومية ايرانية). ومثلما اهتم عباس ميرزا بتحديث الجيش عمل كذلك على تأسيس مطبعة حجرية في تبريز، وتشجيع الترجمة الى الفارسية، واصلاح الادارة.
ودعم النزوع التحديثي لعباس ميرزا وزيره الميرزا ابو القاسم عيسى قائم مقام فراهاني (١٧٧٩-١٨٣٥) الذي حارب الفساد، وحاول تطهير البلاط الملكي، لكنه دفع حياته ثمنا لذلك، فقتل بأمر محمد شاه القاجاري.
وكادت شعلة التحديث ان تنطفئ بوفاة عباس ميرزا ومقتل الوزير قائم مقام فراهاني، لولا جهود الميرزا تقي خان أمير نظام المعروف بأمير كبير (١٨٠٥أو١٨٠٧-١٨٥١) الذي اصبح اول رئيس وزراء لناصر الدين شاه القاجاري، وكان امير كبير قد تعلم في تبريز في بلاط ولي العهد عباس ميرزا على يد مجموعة من الخبراء الاوروبيين، كما اطلع على الاصلاحات و"التنظيمات" الحديثة في اسطنبول، عندما اضحى سفيرا لايران في الدولة العثمانية، حيث مكث فيها لمدة اربع سنوات، في المدة التي كان فيها رشيد باشا، رائد الاصلاحات والتنظيمات العثمانية، هو الصدر الاعظم وبعد ان تسلم امير كبير الوزارة لم يلبث في منصبه سوى ثلاثة اعوام، اصر فيها على الاصلاح الاداري والمالي في بلاط الشاه، فقد وضع سلما للرواتب، حدد فيها راتب الملك اولا، وانشأ مصحات عديدة، ودائرة للبريد، وتعاقد مع النمسا لاصلاح الجيش، واستورد السلاح من بريطانيا وروسيا، وحارب الفساد.
وأصدر ميرزا صالح شيرازي اول صحيفة في ايران سنة٩١٨٣ بإسم "كاغد اخبار" وبعد اثنتي عشرة سنة اصدر امير كبير الجريدة الرسمية لايران" روزنامه رسمي ايران" والتي تحول اسمها الى "وقايع اتفاقيه" بعد مدة وجيزة، ثم امسى اسمها فيما بعد "روزنامه دولت عليه ايران" جريدة دولة ايران العلية، وظلت تدار هذه الصحف بواسطة فريق من الموظفين الكبار في الحكومة، وفي سنة ١٨٦٣ اهتمت الصحيفة الأخيرة بترجمة المقالات العلمية، وباتت تصدر بالفارسية والعربية والفرنسية.
يتلخص الانجاز الأهم لأمير كبير في تأسيس" دار الفنون" عام ١٨٥١، وهي أول مدرسة خارج اطار المدارس الدينية في ايران، وفكرتها مستقاة من" دار الفنون" في اسطنبول، التي أنشئت قبلها بثلاثة اعوام. وتمحور التعليم فيها على: الطب والتشريح، والهندسة، واللغة الأجنبية، وجاء معظم اساتذتها من بلدان اخرى، مثل: فرنسا، والنمسا.....وغيرهما من البلدان الغربية. استوعبت المدرسة ١١٤ تلميذا في مختلف مراحلها، واصل جماعة منهم تعليمهم العالي في اوروبا.
وبمقتل امير كبير بعد افتتاح دار الفنون بثلاثة عشر يوما، غاب مؤسسها وأمست بلا رعاية، وتحولت الى تأهيل كبار الموظفين والعسكريين في الدولة، واقتصر القبول فيها على ترخيص وزير العلوم، وضاق هامش الحرية فيها، وانحسرت التقاليد الديموقراطية العلمية والتعليمية، التي ارساها امير كبير.
تراجعت حركة التحديث بعد ان قضى امير كبير بأمر ناصر الدين شاه، الذي لم يتحمل مشاريعه ومساعيه الإصلاحية المتنوعة، بالرغم من انه كان يتمتع بمكانة مميزة عند ناصر الدين، باعتبار امير كبير تولى توجيه وإرشاد وتعليم الأخير في فتوته.
ومنذ مطلع القرن التاسع عشر نلاحظ زيارات متعددة الى أوروبا، قام بها اشخاص، لم يكن هدفهم الدراسة والتعليم، كما كان يفعل التلامذة المبعوثون الى هناك. رحل هؤلاء الى مختلف البلدان الأوروبية، وكان هاجسهم دائما اكتشاف عالم بعيد، غريب، يضج بما هو جديد ومدهش، واهتموا بتدوين مشاهداتهم، ورصدوا الكثير من الاحداث، وكتبوا عن التمثلات الاجتماعية، والتعبيرات الفنية، والنظم السياسية والإدارية والاقتصادية والمالية، وسجلوا ما تعرفوا عليه من علوم ومعارف وفنون، وأشاروا للمفاهيم والأفكار والآراء، وكل ما لفت انتباههم. وغالبا ما جاءت مذكراتهم بشكل انطباعات وملاحظات عاجلة، تقف عند السطح، ولا تدرك الجذور، والامتدادات والأعماق، والمجالات والفضاءات، والأبعاد المختلفة لتلك الظواهر، ومنابعها وخلفياتها ومرجعياتها، وسياقاتها التاريخية والدينية والثقافية، والعناصر المكونة لها، والنسيج المعقد للعوامل المتنوعة المولدة لها.
كما ان تلك الانطباعات غالبا ما اختزلت الغرب في بعد واحد، وتورطت في احكام مبتسرة سريعة، تدعو لقبول الغرب واستعارته كما هو، أو نبذه ومناهضته ورفض كل شئ ينتمي إليه.

أزمنة التحديث

تخطى مسار التحديث في ايران عدة محطات، منذ انطلاقته في مطلع العقد الثالث من القرن التاسع عشر الى اليوم، وتبدت سمات مميزة في كل زمان من الأزمنة التي تحرك فيها. وبوسعنا تحقيب أزمنة التحديث في فترات، تستغرق كل واحدة عدة عقود زمنية، تطول او تقصر، حسب طبيعة المتغيرات، والاستجابة والتحدي التاريخي للمجتمع، وأشكال التعاطي مع الماضي، ومع الآخر المختلف، ويمكن ايجاز الحديث عن هذه الأزمنة فيما يلي:

الزمان الأول: الاكتشاف والإقتباس والتقليد (١٨٢٠-١٨٧٨)

في هذا الزمان اكتشف الإيرانيون الاصلاحات و"التنظيمات " العثمانية، و"اصلاحات " محمد علي باشا في مصر، فعملوا على استعارتها ومحاكاتها. ودشنت هذه المرحلة باصلاحات ولي العهد عباس ميرزا، ومساعيه في تحديث الجيش، وابتعاث الطلاب الى اوروبا، وتعاون وزيره قائم مقام فراهاني معه، ثم محاولات امير كبير البالغة الأهمية في تحديث النظم الادارية، والمالية، والعسكرية، والتعليمية في الدولة القاجارية، وبلغت المرحلة الاولى ختامها بإقصاء سبهسالار من الوزارة. وكان الميرزا حسين خان القزويني الملقب بمشير الدولة ثم سبهسالار ولد في ١٨٢٥م وبعد عزله من رئاسة الوزراء اصبح واليا لكيلان، ثم وزيرا للخارجية لفترة قصيرة، وأخيرا واليا على خراسان. الى وفاته فيها عام ١٨٨٠م.
وقد دفع المنحى الاصلاحي لدى ناصر الدين شاه ان يبحث عن بديل لأميركبير، فعثر على سبهسالار الذي كان ابوه من الشخصيات المرتبطة بالبلاط، تقلد الوزارة، وترعرع في جهاز امير كبير، الذي بعثه سفيرا لايران في الهند، ثم تفليس. وسبهسالار من أوائل خريجي دار الفنون ، أرسله أبوه بمعية أخيه الى فرنسا ، وعمل لمدة ثلاثة عشر عاما في تركيا، وتعلم التركية الاسطنبولية، وتأثر كثيرا بافكار الاصلاحيين الأتراك الذين كانوا من اصدقائه المقربين. وحينما سافر ناصر الدين الى العتبات المقدسة في العراق ١٨٧٠، استقبله سبهسالار واستضافه، باعتباره سفيرا لايران في الدولة العثمانية، فنال رضا الشاه واعجابه، وجلبه معه الى طهران، واستوزره للعدل اولا، ثم الحرب، وخلع عليه لقب سبهسالار، اي "امير الجيش" . وأخيراً تبوّأ رئاسة الوزارة في ١٨٧١م.
كان سبهسالار تحديثيا، يسعى لإحداث اصلاحات شاملة في البلاد، لم يضطهد خصومه، مثلما فعل امير كبير. ومن فرط اعجابه بالمعارف والآداب والفنون والحريات والحقوق في أوروبا روج الموسيقا الغربية، وأسس" دار الشورى الكبرى". وفسح المجال لصدور الصحافة، وأنشأ معاهد لتعليم المعارف الجديدة، ومنح الصحف الحرية بتقويم ونقد الحكومة، مما أثار حفيظة رجال البلاط وبعض رجال الدين، فوصف ملا علي كني كلمة الحرية التي يدعو لها سبهسالار بأنها قبيحة (كلمه قبيحه ازادي).
وبمرور الأيام تزايدت الأصوات المعارضة له، وتكاثر خصومه، من رجال البلاط، الذين فقدوا أهم مخصصاتهم وامتيازاتهم، بعد ان أراد مساواتهم بكافة المواطنين امام القانون. وكذلك بعض رجال الدين، إثر محاولاته تأسيس محاكم مدنية، والتخلص من العقوبات البدنية، كالجلد وبتر الاعضاء، ودعوته الصريحة للحرية، فأفتى بعضهم بضرورة اقصاء سبهسالار، وهددوا ناصر الدين ان لم يعزله بترك ايران.
تعاقد مع رجل الاعمال الانجليزي رويتر، كيما يؤسس شبكة للسكك الحديدية والطرق في البلاد، وغير ذلك من البنى التحتية، غير انه واجه معارضة شديدة، ولم يدعمه احد سوى ناصر الدين، واتسعت رقعة معارضيه وضجوا بالشكوى من اصلاحاته، وتحريض ناصر الدين شاه عليه، حتى تحصن رجال البلاط ضده، وهددوا بأنهم لاينتهون من تحصنهم مالم يقصيه الشاه. وبلغت مواقف خصوم سبهسالار الى الحد الذي أفتى احد رجال الدين بوجوب قتله. فرضخ ناصر الدين في خاتمة المطاف وعزله، بالرغم من انه لم يلبث في رئاسة الوزراء سوى سنتين.

الزمان الثاني: انبعاث الأنا ومناهضة الإستبداد (١٨٧٨-١٩٠٦)

يستوعب هذا الزمان النصف الثاني من حكم ناصر الدين شاه الى ثورة المشروطة في (١٩٠٦). سادت فيها الدعوة الى اشتراع دستور لعمل الدولة، والاهتمام بالتنمية الاقتصادية والثقافية، والدعوة للخروج من نفق التخلف. وشدد مجموعة من الكتاب على استلهام النظام السياسي الحديث في اوروبا، وضرورة الاستناد الى الشعب كمصدر لمشروعية السلطة، وشجبوا الاستبداد، وكافة اشكال احتكار السلطات، وعدم الفصل بينها. فقد كتب الميرزا يوسف خان التبريزي، مستشار الدولة (١٨٢٣-١٨٩٥) ان الشعب هو المصدر الوحيد لمشروعية السلطة، وهو اول ايراني يطالب بتدوين دستور، وملكية دستورية، أو سلطنة مشروطة، حسبما يقول فريدون آدميت.
وكان مستشار الدولة أحد السياسيين المعروفين في العصر القاجاري، وأصبح وزيرا لفترة وسفيرا لايران في روسيا وفرنسا. وقد ترجم اعلان حقوق الانسان من الفرنسية الى الفارسية، وسعى الى دعم تلك الحقوق بما يؤيدها من الكتاب والسنة والسيرة. كما أصدر رسالة بعنوان كلمة واحدة " يك كلمه ". ويقصد بالكلمة الواحدة القانون، وهو يرى انه السبيل الوحيد للنهوض والتقدم.
وكان لصوت جمال الدين الافغاني (١٨٣٨-١٨٩٧) ودعوته استجابات واسعة في إيران، فطالما تردد على ايران، وتواصل مع السلطة والبازار ورجال الدين فيها، ففي مايو١٨٨٦ رسا في بوشهر، ولبث هناك الى آب «أغسطس» ١٨٨٦م، فبلغ طهران نهاية تلك السنة عبر شيراز واصفهان، وفي نيسان «ابريل» ١٨٨٧م غادر طهران - بعد ان ضاق به ناصر الدين شاه ذرعا - الى موسكو التي أخلد فيها بضعة أشهر، ومنها ذهب الى سان بطرسبرج بروسيا، فاستقر هناك من شباط «فبراير» ١٨٨٨م الى منتصف عام ١٨٨٩م، ومنها سافر الى ميونخ بألمانيا ثم عاد الى روسيا في نفس العام، وعاد الى طهران مرة أخرى في أواخر هذا العام، بناءً على دعوة من ناصر الدين شاه، وبعد عدة أشهر تبدلت الأجواء في طهران وحدس الأفغاني وقيعة ناصر الدين به، فتحصن بمقام شاه عبد العظيم الحسني في تموز «يوليو» ١٨٩٠م، ولبث فيه حتى طرد منه في كانون الثاني «يناير»١٨٩١م، وجرى تهجيره بطريقة شنيعة قاسية الى العراق مروراً بكرمنشاه، فانتهى الى بغداد في آذار «مارس» ١٨٩١م ومنع من زيارة العتبات المقدسة في العراق، واستقر بالبصرة الى صيف ١٨٩١م، ومنها شخص الى لندن التي أقام فيها الى مطلع صيف١٨٩٢م، وجهر بصوته ضد فساد ناصر الدين شاه واستبداده، فسعى ناصر الدين شاه الى السلطان عبد الحميد كيما يدعوه الى العاصمة العثمانية، فدعاه عبد الحميد، ورغب اليه ان يساعده في مشروع «الجامعة الاسلامية»، التي هي احد مرتكزات مشروع الأفغاني الاحيائي، فنزل على رغبة السلطان ووصل الاستانة صيف ١٨٩٢م، وقطن فيها مرغما في المحبس «الذهبي» تحت أعين السلطان الى وفاته ٩ اذار «مارس»١٨٩٧م . وحيثما ذهب الافغاني لايفتأ عن مناهضة الاستبداد، وتقويض مفاهيم وشعارات السلطات الشمولية المطلقة، وتزييف دعاوي السلاطين والخلفاء، وطالما ندد برجال الدين الذين ينفرون الناس من الاسلام، وحث على تطوير النظام التعليمي في الحواضر العلمية التقليدية، والتخلص من الأساليب العقيمة في الدراسة، وتحديث المقررات التعليمية المتعارفة.
وفي عام ١٨٩٠ اصدر الميرزا محمد حسن الشيرازي، من سامراء في العراق، فتواه الشهيرة بتحريم التنباك، من اجل إلغاء الامتياز الممنوح من حكومة ناصر الدين شاه الى شركة رجي البريطانية، لانحصار كل مايتعلق بزراعة وصناعة التبوغ فيها، وحرمت ما يقارب المئتي الف مواطن من ارزاقهم، ممن كانوا يعملون في هذا المجال.
وبعد صدور الفتوى مباشرة انهار الامتياز الممنوح للشركة، ورضخ ناصر الدين شاه لسطوة الفتوى، عندما أصاب الشلل فاعلية كل المرافق المتصلة بزراعة وتصنيع التبوغ.
وكانت هذه الفتوى اختبارا مدهشا لتأثير المرجعية الدينية العليا في المجتمع، والمكانة السامية لكلمتها في حياة الناس، وهيمنتها على مشاعر الأتباع وعواطفهم وأرواحهم وعقولهم. وهي تؤشر الى عمق وعي الأنا لذاتها، وقدراتها المخبوءة في مقاومة الاستبداد والاستعمار. ولم تتقوض مكانة المرجعية الدينية في ايران أو تتداعى وتضمحل، وانما تكرست وتعززت دورها بمرور الأيام.

الزمان الثالث: المشروطة أو الدستورية (١٩٠٦-١٩٢٥)

استفاق وعي النخبة الايرانية في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين على ان غياب القانون، وتفشي الاستبداد والملكية المطلقة، غير المقيدة بدستور، هو منبع التخلف والانحطاط، الذي يرزح في اغلاله المجتمع الايراني.
وكان للمذكرات والانطباعات، التي دونها المسافرون والرحالة والطلاب والبعثات الدبلوماسية الايرانية الى أوروبا، تأثير بالغ في ادراك الدور، الذي يلعبه الدستور في الحد من السلطة، والتداول السلمي لها، من خلال الفصل بين السلطات الثلاث، والتوكؤ على الشعب كمصدر للمشروعية، ومراقبة تنفيذ القانون.
حين نراجع الكتابات المدونة في تلك الفترة، نجدها تشترك في الدعوة لإشتراع القانون، والالتزام بتطبيقه، وهو ما نطالعه في مقالات الصحف والمجلات، والرسائل والكتب، وأدبيات الرحلات والأسفار، والنصوص المترجمة الى الفارسية. وسبقت صحيفة "اختر" الايرانية الصادرة في اسطنبول في القرن التاسع عشر سواها، في طرح مسألة القانون، والتشديد على ضرورة ترويج ثقافة دستورية بين الناس، وتوعيتهم بأن مشكلات حياتهم ناجمة عن عدم وجود دستور، وعدم تنظيم السلطات وحدودها ومجالاتها في قانون.
ولما كانت هذه المسألة من اهم مشاغل النخبة وقتئذ، اصدر ميرزا ملكم خان ناظم الدولة (١٨٣٣-١٩٠٨) صحيفة في لندن تحت عنوان" قانون" تمحور اهتمامه فيها على ضرورة سن القوانين، وان السبيل الوحيد لنهوض ايران هو القضاء على الاستبداد، واقامة حكومة تعمل في اطار قانون.
واستوحى ملكم خان تصوراته بشأن القانون من مطالعاته لآثار مفكري الثورة الفرنسية، واوغست كنت، والفيلسوف الانجليزي جون استيوارت مل. وقد شدد في رسالته المعروفة بـ"مكتوبات" على هذه المسألة، واعتبرها السبب الرئيسي لكافة اشكال التخلف.
كذلك ربط ميرزا عبد الرحيم طالب اوف التبريزي (١٨٣٤-١٩١١) تخلف ايران بغياب القانون، ففي كتابه (سياست طالبي) الذي صاغه على شكل حوار بين شخصين "ميرزا عبد الله وميرزا صادق" يرمزان الى المثقف المستنير في عصره، ويبحثان عن تفسير موضوعي علمي لانحطاط المجتمع، يتفقان في خاتمة المطاف على رأي واحد، يتلخص في ان (علة العلل لانحطاط ايران هي كلمة واحدة، وهذه الكلمة ليست سوى القانون).
ولا تختلف هذه الرؤية عن رؤية ملكم خان، او رؤية مستشار الدولة في رسالته كلمة واحدة (يك كلمه) الذي كان فيها سباقا في دعوته لصياغة الدستور، وهكذا في مقالاته في صحيفة "اختر" .
وسادت كتابات النخبة الايرانية في هذه المرحلة مصطلحات: الحكومة القانونية او الدستورية "حكومت قانوني"، والحرية "حريت"، والنظام البرلماني "نظام برلماني"، "دار الشورى "مشورت خانه"، او"هاوس كامن"house common .
وانعكست اصداء هذه الكتابات على لسان الوعاظ وخطباء المنابر، ممن يواظبون على تحريض مستمعيهم، وتعبئتهم لمناهضة الاستبداد، عبر المناداة بدولة القانون، ورفع الشعارات المطالبة بالدستور، وتكرارها في كل مناسبة.
ويمكننا ملاحظة مدى الاصرار على هذه المسألة والتأكيد عليها، حين نطلع على نموذج لهذه الخطابات الموجهة من على المنبر للجمهور، فمثلا يدعو السيد جمال الدين الاصفهاني، احد الخطباء المعروفين في ذلك الزمان، الناس بقوله: (ايها الناس: ليس بوسعنا بناء بلدنا من دون التمسك بالقانون، ومن دون التعرف على القانون، ومن دون حفظ القانون، ومن دون احترام القانون، ومن دون تنفيذ القانون، القانون ثم القانون. لابد من تعليم القانون للأطفال في الكتاتيب والمدارس منذ الصغر، ويجب تفهيمهم ان ليس هناك معصية في الدين والشريعة اعظم من مخالفة القانون.....).
كذلك استوعب الوعي الدستوري الايراني مجموعة تشريعات وقوانين دستورية ولوائح حقوقية فرنسية وعثمانية وعربية، واهتم بنقلها من لغاتها الاصلية الى الفارسية، كما لاحق الكتابات الجادة في تشريح الاستبداد وتفكيكه، وترجمها وروج لها، مثل كتاب عبد الرحمن الكواكبي" طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد"، بعد مدة وجيزة من صدوره، ومن قبله ترجم مستشار الدولة لائحة حقوق الانسان من الفرنسية، وترجم ميرزا حسين خان سبهسالار دستور مدحت باشا العثماني الى الفارسية ايضا.
ساهمت أنشطة ومساعي وكتابات النخبة الفاعلة بإيجاد ارضية واسعة للوعي الدستوري في المجتمع الايراني، بعد ان جعلت مناهضة الاستبداد وتدوين الدستور من اهم أولوياتها، وكرست مختلف الجهود لإشاعة هذه الثقافة وتعميمها، بنحو لم تعد ثقافة خاصة بالنخبة، وانما امتلكها الوعي الشعبي، وصارت القضية المطلبية الاولى في حياة المواطن الايراني. ووجد جماعة من الفقهاء ان الظروف الاجتماعية والسياسية ممهدة، لإرغام الملكية المستبدة على تحديد سلطاتها وتقييدها في اطار قانون أساسي، يستمد مشروعيته من الشعب، ويخضع بموجبه الملك لإرادة الأمة، ولايختصر كل شئ بشخصه.

نادر شاه

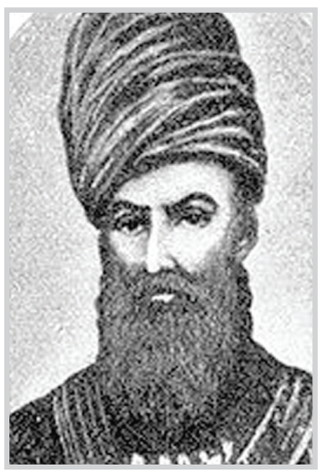
كريم خان زند

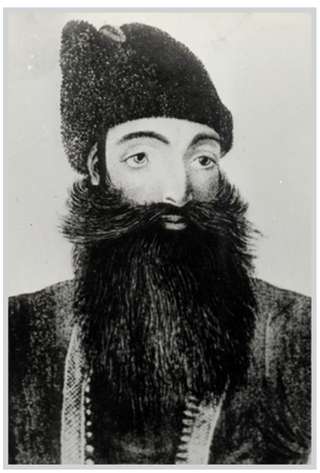
عباس ميرزا

اقا محمد خان

ميرزا صالح شيرازي